

تراث الإمام الصادق (ع) من الوجهة الفنية

الدكتور عبدالكريم الأشتر

«الأدب في غير كتب الأدب» دفعت الكاتب أن يتطرق إلى هذا الموضوع حيث أورد في مقاله دلائل شافية على أن بلوغ الأثر في الكلام بما يتوافر في صياغته وأسلوب تناوله، من صفات المهارات الفنية وخصائصها، فهو أدب. فكلام الأئمة وغير الأئمة من أعلام مدرسة النبوة، ومنهم الإمام الصادق الذي امتلأت الكتب بأدعيته وحكمه ووصاياه ورسائله وتحليلاته الفكرية والفقهية والفلسفية وأدلته العقلية فهو حافل بأسمى معاني الأدب.

فيورد الكاتب خصائص من العصر الذي شهده الإمام الصادق (ع) و الأفكار السائدة حينذاك ومن ثم يستشهد بأحاديث وكلمات الإمام النابعة من قرارة نفسه الزكية الواقعة بشؤون الدين والدنيا. فتناول الجوانب الأدبية من تراثنا رغم كل الصعوبات التي تفتح آفاقاً جديدة نحو ما يتسم به الأدب.

(١)

المستشرقين الفرنسيين بألعاب (الأكربات).

فعلى هذا النحو، لصق بأذهاننا أن الشر العربي تقلبت مذاهبه وانتهت في العصور المتأخرة، إلى ما سماه أحد الباحثين «مذهب التصنع»، بعيداً عن الكتابات الطليقة التي كانت الحياة، في هذه العصور نفسها، تملئها على لسان ابن حزم مثلاً وابن خلدون ومحيي الدين بن عربي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

وعلى هذا النحو أيضاً عُنيينا، في تاريخ هذا الأدب، بالشريف الرضي وشعره، ولكننا لم نعن بأخيه الشريف المرتضى وأماله الرائعة التي تشف عن قدرة بيانية خارقة يغذوها علم عزيز وذوق يبلغ الغاية في الدقة والرفافة. وعنيينا بابن العميد

فالموضوع الذي اخترت الكلام فيه، تشغلني، بعض مسأله منذ زمن طويل. فإني وجدت تاريخ الأدب العربي يكاد يُغفل - إذا استثنينا الشعر في جميع العصور - صفحات لا تخص من الأدب الحي الذي كتبه أو أملاه رجال الحكمة وفلسفة والكلام، ورجال التاريخ والسير والتراجم والطبقات والأسفار وغيرها؛ شغلته عنها، فيما يبدو، أنواع الكتابة الأخرى التي كتبت لمقاصد أدبية صرف، مهما تواضع خطها من جمال تصوير أو التعبير، ومهما تدنت قيمتها الفكرية أو الوجدانية، وعلى ما حفلت به، في العصور المتأخرة، من ضروب التزييق والتنسيق، وطغيان النزعة اللفظية والأعبيها التي شبهها أحد

ثم إنني كنت أمضيت، مع طلبة الدراسات العليا بجامعة دمشق، عاماً كاملاً درسنا فيه، تحت عنوان (الأدب في غير كتب الأدب) نصوصاً اخترتها من كتاب الحيدة، الذي ذكرته منذ قليل، وكتاب التوهم للحارث المحاسبي، من رجال القرن الثالث. ونصاً من كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري، من رجال القرن الرابع، ونصين من كتاب رسوم دارالخلافة لهلال الصابئ، والمنقذ من الضلال للغزالي، من رجال القرن الخامس، ونصوصاً من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ، وكتاب التوأمين لابن قدامة المقدسي، ورسالة روح القدس لابن عربي، من رجال القرنين السادس والسابع وإنما عدّدت أسماءهم وذكرت كتبهم، تعزيزاً لهذا الرأي.

كل كلام يجمع إلى موضوعه، مهما يكن موضوعه، القدرة على بلوغ الأثر، بما يتوافر في صياغته وأسلوب تناوله، من صفات المهارات الفنية وخصائصها، فهو أدب. ذلك لأنه لم يتجه في خطابه، كما يتجه أصحاب العلوم البحث، إبي العقول وحدها، وإنما اتجه إلى قوى النفس بمجموعها، بقصد التأثير فيها، عقلاً وشعوراً وخيالاً وذوقاً للجمال وهذا كله ينطبق على أكثر مما كتبه هؤلاء وأمثالهم من رجال العلم والإدارة والسياسة. وينطبق، على نحو لا يحتمل الخلاف أبداً، على كلام الأئمة وغير الأئمة من أعلام مدرسة النبوة، ومنهم الإمام الصادق الذي امتلأت الكتب بأدعيته وحكمه ووصاياه ورسائله وتحليلاته الفكرية الفقهية والفلسفية وأدلته العقلية وتوافر له، في التعبير عنها، بما يتوافر في كلام أئمة البيت النبوي ورجالهم ونسائهم، من قدرات فنية تجعل من تراثهم، في الحكمة والدعاء والمناجاة والمناظرة والحوار والخطابة وغيرها، أدباً إنسانياً ساطع الروح، عامراً بالحياة، ملتزماً تطهير النفس الإنسانية من نزعات الجشع والحسد والكبر، وما تغري به القوة الغاشمة أصحابها من الظلم والقهر وتزوير الحقائق، وإزاحة الإنسان عن فطرته الخيرة، وتقوية إيمانه بوحدانية الله وعدله، ودعوته إلى إحكام الصلة بين قوله وعمله، مما ننصرف، في كلمتنا هذه، إلى بيانه في أدب الإمام الصادق، واستخلاص خصائصه الفنية.

والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل، ولم نعن بالمسعودي والطبري وابن الجوزي وابن عساكر، فلم ننظر إليهم في تاريخ هذا الأدب إلا من حيث هم أصحاب أخبار تنفع في الدراسات والبحوث.

ثم من هذا الباب، ومن باب التضييق الذي أمليناه على أنفسنا، باسم صراع المذاهب، ونفخ في بوق أصحاب الأغراض، انطمست في تاريخ هذا الأدب صفحات متألقة من كلام رجال آل البيت وأئمتهم، في أماليهم وخطبهم وأدعيتهم وحكمهم، فلم يكن الفريق الأكبر منا يعرف عنها شيئاً يغني. ولو أننا كسرنا هذا الخط في تاريخ أدبنا لوجب أن تتغير أو تتعدل كثير من الأحكام فيه، ولا غنتينا بنصوص أدبية عالية القيمة الفكرية الفنية، ولا زدنا وعياً بخصائص جنس أو نوع أدبي لم نعن به، فيما أعلم، العناية اللازمة، وهو أدب المناظرات والجدل، الذي تفرقت نصوصه في كتب التراث بمجموعه، في اللغة والأدب والفقه والقضاء والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام وغيرها، وألفت فيه كتب أغفلها تاريخ الأدب، مثل (كتاب الإلهيلجة) - ثمرة شجر في الهند، لعله شجر الأناناس كما نسميه اليوم - الذي طال كلام المصادر على نسبته إلى الإمام الصادق، في مناظرة طيب هندي لا يؤمن إلا بالمعرفة التي تحصلها الحواس، وينكر أسباب المعرفة الأخرى، ومثل (كتاب الحيدة) الذي كتبه عبدالعزيز الكفاني، في مناظرة بشر الميرسي من المعتزلة، في حضرة المأمون، حول قضية خلق القرآن. إن ما لفتني إلى هذا الموضوع بجملته لفت رجلاً آخر من الهند، اسمه أبو الحسن علي الحسيني الندوي، وكيل ندوة العلماء في الهند، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق. فقد جمع في كتابه (مختارات من أدب العرب) نصوصاً جميلة من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والاجتماع، إلى جانب نصوص أخرى تمثل للأدب الخالص، بعد أن نعى علينا أن نهمل ذلك الأدب الحي، ونعني كثيراً بأدب الصنعة والمهارات اللفظية، فنضيق على الأدب العربي تراثاً ضخماً كتبه أناس امتلؤوا بقوة العقيدة وحرارة الحياة وصدق الحافز، واتصف أدبهم بالقرب من الطبيعة، وبروعة الأداء ونفوذ الأثر.

تراث الإمام الصادق (ع) من الوجهة الفنية

(٢)

على أن في المصادر ما يشير إلى نقد وجهته المعتزلة وأطراف من المعارضة السياسية إلى الإمام الصادق، لما يبدي من الحذر في سرعة الانضمام إلى حركات الثورة على الأمويين والعباسيين بعدهم ولقعوده عنها. والحق أننا نجد في بعض ما وصل إلينا من تراثه ما يذكر بهذا النقد. ولكن ينبغي أن نذكر هنا أن الإمام كان يشهد بعينه مآسي الثائرين من آل البيت، واحداً بعد الآخر، منذ فتح عينيه على الحياة إلى انقضاء دولة الأمويين. يكفي أن نذكر إخفاق ثورة عمه زيد بن علي، وهو في الثانية والأربعين (١٢٢هـ)، وإخفاق ثورة ابن عمه يحيى بن زيد، وهو في الخامسة والأربعين (١٢٥هـ)، وإخفاق ثورة النفس الزكية (محمد بن عبدالله بن الحسن)، وثورة أخيه إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، وهو في حوالي الخامسة والستين (١٤٥هـ). ويشهد مصارعهم جميعاً، وما حفلت به كتب التاريخ من صور القسوة في التنكيل بهم. فإذا أضفنا إلى هذا ذكرى مأساة جدّة الأول (الإمام الحسين بن علي) في كربلاء، وهي أم المآسي قاطبة، وكان وعامها منذ أيام الطفولة، أدركنا سرّ الحذر الذي كان يبديه في مجالسه، في وجه السلطة وعيونها، وفي وجه معارضيها أو المدسوسين عليهم وما يشيع في تراثه من قوة الإحساس بخوف المكيدة وشرّ الخلق، حتى لقد بدأ ذلك في نقش خاتمة الذي يحمله في يده، في جميع الروايات المنقولة: «اللهم أنت ثقتي، فني شرّ خلقك. أنت ثقتي فاعصمني من الناس. ياثقتني فني شرّ جميع خلقك!» وفي بعض أدعيته، وهذا المعنى شائع فيها: «اللهم من أرادني بسوء فأردّه، ومن كادني فكده، واصرف عني همّ من أدخل عليّ همّ، وامكّر بمن مكّر بي، فإنك خير الماكرين، وافقأ عني عيون الكفرة الظلمة، الطغاة الحسّدة».

ويشير تاريخ الإمام إلى أن أناساً خاطبوه في ما يتخذ لنفسه من حسن اللباس. وذكره بما نعرف من زهد جدّه أمير المؤمنين وتقصّفه. وفي كلام منتقديه أيضاً، من أطراف المعارضة السياسية، إشارة إلى ما يميل إليه من الراحة وإيثار الظل. ففي أخباره، وبعض كلامه وأدعيته ما يذكر بما يشير إلى هذا التاريخ. يقول: «إن الله عزّوجلّ يحبّ الجمال والتجمل

عاش الإمام الصادق عقدين من القرن الهجري الأول، وما يقرب من خمسة عقود، من القرن الثاني. فحتى نفهم خصائص تراثه، لا بد من أن نلمّ بصفات عصره، على قدر من التركيز والاختصار، يعين على استخلاص أبرز خطوط تكوينه الفكري والنفسية.

نحن في غنى عن الإفاضة في ما اكتسب من نشأته في حجر والده الإمام العالم محمد الباقر، ابن الإمام علي زين العابدين الملقّب بالسّجاد ذي الثّنات، مما لحق بجبينه من أثر الإطالة في السجود (الثّفنة ركة البعير)، ابن الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فهذا إرث النبوة في فقهاها للدين وصفاء روحها وعمق إيمانها وروعة بيانها وقوة التزامها بهذي الإنسان، وإشاعة الحق والخير في مجتمعه، وتطهير روحه من أدران التعصب والكره وطغيان الأثرة والجنوح إلى الظلم.

ثم إنه ولد في السنة التي ولد فيها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، من رؤوس المعتزلة. وعاصر الحسن البصري إمامهم الأول. فقد شهد إذن ظهور الاعتزال والإرجاء (المرجئة) في دولة الأمويين. والاعتزال، في اختصار، دعوة إلى إعمال العقل في فهم الدين وعقائده، وإلى تحريره من وهم الجبر (رسوف الإنسان في قيود الأقدار) وتنمية وعيه بقدرة العقل على اختيار الطريق، وبعدهل الله في محاسبة الإنسان من بعد. ثم هو دعوة إلى الإيمان بوحداية الله المطلقة، بعيداً عن التشبيه والحلول وما يتصل بهما من أفكار الشعوب والعقائد التي بدأ المسلمون يخالطونها على إثر الفتوح في العصر الأموي؛ ودعوة إلى وصل الإيمان بالعمل بأحكام الدين على عكس ما بدأ المرجئة (الداعون إلى الفصل بينهما في الحكم على المسلم) يشيعونه في الناس بتأييد من السلطة الأموية، على ما يبدو، للتغطية على ما يتناقل الناس من ضعف التزام بعض رجالها وخلفائها بأوامر الدين ونواهيها. ونرى، بالرجوع إلى مجموع تراث الإمام الصادق، قربه من فكر المعتزلة لما يرشح به واقع الدولة الأموية السياسي والإداري، وما يشيع فيها من الدعوات، ومن صدى العقائد الوافدة.

تراث الإمام الصادق (ع) من الوجهة الفنية

ومن هذا التراث الذي يعني في هذا الموضوع بعض رسائله التي قالوا: إن تلميذه جابر بن حيان كان جمعها في ألف ورقة، وعدّها خمسمائة رسالة. والكتاب الذي سمّوه توحيد المفضل، مما أملاه على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي وفيه رد على الدهرية والملاحدة، ومقاطع من أدعيته، وجمل من حكمة إلى جانب طائفة من وصاياه وردوده.

فأمّا كتاباه (مصباح الشريعة) و (كتاب الإهليلجة) ففي نسبتها إليه كلام يصعب الآن الفصل فيه. وكنت أتمنى أن يشمل كلامي الكتاب الثاني، ليكون مثلاً من أمثلة أدب المناظرات الذي أشرت إليه.

لا مفرّ إذن من أن اكتفي الآن بهذا القدر من تراث هذا الإمام العظيم الذين ملأ الأرض علماً، كما قالوا. وهو، في كل حال، يفي، في هذه الكلمة، بما نقصد اليه من استخلاص أبرز خصائص فكره الأدبي، بما يمكن اجماله فيما يلي:

١. إطالة الفكر في الأشياء ومعانيها مع دقة الملاحظة وغزارتها. وتبدو، أوضح ما تبدو، في حكمه وردوده على أصحاب المذاهب المادية من الدهرية وغيرهم، وإثبات وجود الصانع الواحد، وتفسير أسباب الصنعة على هذا الوجه، والدلالة على احكامها بما يضمن سلامة العيش وحسن التدبير، على مثال قوله، في خلوه العينين والحواس في الإنسان، مما رواه عنه المفضل بن عمر: «انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي تُحصّ بها الإنسان في خلقه، وشرف بها على غيره: كيف جعلت العينان في الرأس كالمصاييح فوق المنارة، ليمكن من مطالعة الأشياء. ولم تُجعل في الأعضاء التي تحتهم كالبيدين والرجلين فتعرضها الآفات ويُصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كال البطن والظهر، فيعسر تقلبها وأطلاعها نحو الأشياء. فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة (المنارة) لها».

فهذا كلام من أعمل فكره طويلاً في خلق الأشياء، ووصل إلى الحكمة فيه، على الوجه الذي تمّ فيه الخلق. وكتاب التوحيد (أمالي المفضل) يجري كله على هذا النسق من عمق التأمل في

ويغض البؤس والتبؤس». «البس وتجمّل، فإن الله جميل ويجب الجمال، وليكن من حلال». ويقول، في رده على سفیان الثوري: «اسمع مني وع ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وأجلاً إن أنت مُتّ على السنّة ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان في زمان مقفر جذب. فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق الناس بها أبرارها لافجارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها. فما أنكرت يا ثوري؟ فوالله إني، مع ما ترى، ما أتى عليّ، منذ عقلت، صباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن اضعه موضعاً إلا وضعته». وفي دعائه يقول: «أسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك... ولا ترزقني رزقاً يُطغيني، ولا تبتلني بفقر أشقى به، مضيقاً عليّ. اعطني حظاً وافراً في آخرتي، ومعاشاً واسعاً هنيئاً مريئاً في دنياي. ولا تجعل الدنيا عليّ سجنًا، ولا تجعل فراقها عليّ حزنًا. أجرني من فتنتها سليماً، واجعل عملي فيها مقبولاً، وسعيي فيها مشكوراً».

والقصد مما نقوله هنا أن نلّم، أولاً، ببعض المحاور الفكرية والنفسية التي يدور من حولها كلام الإمام وأدعيته، وأن ندلّ، ثانياً، على قرب النصوص التي خلفها من واقع الحياة الفكرية والسياسية في عصره، وتلمّس، ثالثاً، متانة الصلة بين قوله وسيرته، مما يرفع تراثه الفكري والأدبي إلى أن يكون صورة صادقة لحياته، في مرحلة مضطربة من التاريخ يعسر فيها على غير الممتازين من قادة الرأي أن يحتفظوا فيها بوضوح الرؤية ووحدة الفكر والعمل.

(٣)

نرجع الآن إن التراث الذي خلفه لإمام الصادق، فنرى ما وصل منه موزعاً في كتب الفقه وأصوله وكتب التاريخ والأدب والمذاهب والأخبار والأمال والتراجم وغيرها. فتمنّى لو أنّ أناساً فكّروا في جمعه وتصنيفه، و أصدره في مجموعة موحدة، كاملة، وفي جمع تراث الأئمة الآخرين، وتراث رجال آل البيت، على النسق نفسه.

تراث الإمام الصادق (ع) من الوجهة الفنية

أمره». ويقول: «العامل على غير بصيرة السائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بُعداً». ويقول: «إياكم والغفلة. فإنه من غفل فإنها يغفل عن نفسه!»

٣. توجهه في أدبه إلى الفرد والجماعة معاً، وتقوية روح الجماعة: «لكل شيء شيء يستريح إليه. وإن المؤمن يستريح إلى أخيه المؤمن كما يستريح الطير إن شكله». وتأتي دعوته إلى العمل، وإلى تقوية اللحمة بين القول والعمل، في هذه الطريق. وهو ما كنا أشرنا إليه من قبل، في اشارتنا إلى ما كانت المرجئة تدعو إليه، من الفصل بينهما. يقول الإمام: «الإيمان عمل كله». و «لا يثبت الإيمان إلا بعمل». و «كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بالستكم». و «إنها تفاضل القوم بالأعمال».

وفي هذه الطريق أيضاً، تقع دعوته إن اليقظة والحذر ووضع الأشياء في مواضعها، وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان: «من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده!» وفي إجابته من سأله عن حداليقين: «ألتخاف مع الله شيئاً». و «كل رياء شرك. إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله». وفي توصيته بالمساكين والضعفاء: «إن عيسى بن مريم عليه السلام لما أراد وداع أصحابه، جمعهم وأمرهم بضعفاء الخلق، ونهاهم عن الجبابرة». ٤. قوة الصياغة، وإيجازها بما لا يخل بالقصد وبفي المعنى، مع حرارة الروح، وسطوع الاستجابة النفسية لدواعي الحياة، والقرب فيها من الطبيعة الجارية، وبناء الصورة، إذا احتاجها في تشخيص معانية وتقوية أثرها في النفس، من معطيات الحواس، لتكون أنفذ وأوضح. وهذه صفات أدبه كله. بل لعلها صفات أدب المدرسة التي ينتمي إليها، مدرسة آل البيت، ابتداءً من أدب أمير المؤمنين ربيب رسول الله، وانتهاءً بأدب الأئمة ورجال آل البيت جميعاً. ينطبق ذلك على الفكر الأدبي، وينطبق أيضاً، بمقدار ما يستدعي القصد، ويستلزم التعبير من الدقة والوضوح والاتزان، على الفكر العلمي، في الفقه والسياسة والاجتماع والتفسير. وإنما يجتمع ذلك من امتلاء النفس بالفكرة، وحرارة

الكون وكائناته، واستخلاص حقائق خلقها، في مثل هذا البيان الدقيق الواضح، البعيد عن كل تعمل، القريب من الطبيعة، الوافي بالقصد في غير تطويل ولا حشو ولا تكرار، والقادر على استيعاب ما تولده قوة الملاحظة ودقتها من تشعب الفكرة وقوة الإحساس بها.

وفي حكمه الكثيرة التي ساهم بها بعضهم (نثر الدرر) مثل هذا الغوص في حقائق الخلق وأسرار النفوس، ولا تكتمل عدته إلا لمن جمع من قوة الفطرة طول النظر وحدّة الملاحظة، وتوافرت له ثقافة إنسانية منوّعة وخبرة عميقة بأحوال النفس الإنسانية وحقائقها:

يقول في بعض حكمه: «السريرة إذا صلحت قويت العلانية».

يقول: «من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة».

ويقول: «ليس لإبليس جند أشد من النساء والغضب».

ويقول: «إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه».

ويقول: «وهذه تروى للحسن البصري معاصره أيضاً: لم يخلق الله يقيناً لاشك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت».

كيف يتيسر، إلا للممتازين الذين اطالوا النظر في الحياة والإنسان، الوصول إن مثل هذه المعرفة بالنفس الإنسانية فيما تظهر وتبطن، وما تعني قوة إحساسها بالحياة ومواقفها، وما يقرّ في أعماقها من ذهول الرؤية في مواجهة الموت؟ وما أعرف قولاً، في وصف حدّة الغضب وما يقول إليه من ضلال الرشد، كقول الإمام في جمعه بينه وبين أعتى الغرائز البشرية!

٢. تنوع المعرفة وتماسكها، فيما يتصل بشؤون الدين والدنيا جميعاً، وسعة الإطلاع على الثقافات المختلفة. والذي أعان الإمام على الإلمام بهذه المعارف والثقافات إدراكه الحي بما تولد المعرفة في النفس من سعادة الإحساس بقوة الحياة وخصوبة معانيها، واختلاف ألوانها وطعومها. يمثل لهذا قوله: «لا ينبغي لمن لم يكن عالماً أن يعدّ سعيداً!» وقوله: «الناس اثنان: عالم ومتعلم. وسائر الناس همج». ومن هنا تكثرت دعوته إلى تنشيط العقل وتقويته بتطويل التفكير في الأشياء. يقول: «دعامة الإنسان العقل... وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح

تراث الإمام الصادق (ع) من الوجهة الفنية

تسيل النفس فيه برجائها وخوفها وطمئنها إلى السكينة وتطلبها إلى الخلاص، مما لا تستريح فيه القلوب المتعبة إلا باستخراج مكنونها ونثره أمام الله. فمما يلفت الناظر في أدب الإمام أن يجمع بين ما تقتضيه الحكمة والموعظة والخطاب الفقهي والأدبي، من كلف بالإيجاز، وبين ما يقتضيه الدعاء من الإفاضة والتلوين والإلحاح في الرجاء والبث، وأن يبلغ من القدرة في الحالين ما يصعب الوصول إليه إلا على من يملك من رحابة الفكر والخبرة بأسرار البيان وغنى اللغة ومرونة استجاباتها لحاجات التعبير، ما كان يملكه الإمام. ولنقرأ الآن أسطراً من دعاء، دعا، به في آخر شهر رمضان: «إلهي! فإني أعترف لك بذنوبي، وأذكر لك حاجتي، وأشكو إليك مسكتي وفاقتي وقسوة قلبي، وميل نفسي، فإنك قلت: (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون). وها أنذا قد استجرت بك، وقعدت بين يديك مسكيناً متضرعاً، راجياً لما أريد من الثواب بصيامي وصلاتي. وقد عرفت حاجتي ومسكتي إلى رحمتك، والثبات على هداك، وقد هربت إليك هرب العبد السوء إلى المولى الكريم...» «أعوذ بجلال وجهك الكريم أن ينقضي عني شهر رمضان، أو يطلع الفجر من ليلتي هذه ولك عندي تبعة أو ذنب تعذبني عليه يوم ألقاك...».

فهذا الدعاء يمثل لخصائص أدب الدعاء في تراثه كله، وهي الخصائص التي ذكرتها منذ قليل. وفيه نلمس عمق الإحساس بمكان الله من القلب، وحرارة النفس في توجيهها إليه، وقد يعجب قارئ هذا الأدب أن تلوّن المعاني والإحساسات، في مواقف الدعاء المتشابهة، هذا التلوين.

وفي الختام لا يزيد ما قلته في هذه الكلمة، عن أن يكون نظرة طائفة في تراث الإمام الصادق، قصدت منها أن ألفت النظر إلى درسه من الجانب الفني، ففيه من الغنى والرحابة والعمق والجمال والصدق والاستجابة للطبع والبعد عن اللفظية ما تصغر إلى جانبه آلاف الصفحات التي تنكب على درسها، من أدب الصنعة في عصور الهزال الفكري والروحي التي ما تزال نعاني من بعض رواسيها إلى اليوم.

الإحساس بها، وبما تستلزم العقيدة، في بيان مقاصدها، من قوة التركيز ونفي الفضول اللفظي، وما يدعو تقريبها إلى الناس، من شخوص الصورة ووضوح التمثيل.

وفي كلام الإمام الصادق أقوال عن البلاغة وصفاتها تقرب ما انتهينا إليه. يقول: «ثلاثة فيهن البلاغة: التقريب من معنى البغية، والتباعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير». ويقول: «من عرف شيئاً قلّ كلامه فيه» يريد: أن من يعرف الشيء يصل إليه في أقل الكلام. ويقول: «وإنما سمي البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه». ويقول: «ليست البلاغة بحدة اللسان ولا بكثرة الهديان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة».

فمن هنا نصل إلى فهم خصائص ما نقلنا وما نقل في هذا الحديث، من أقواله وحكمه التي تتحقق فيها صفات البلاغة التي نص عليها. يقول مثلاً: «كثرة النظر في الحكمة تفتح العقل». فقد جمع ما يتمثل في النفس من صور اللقاح ومعانيه وأثره في تنشيط حركة الحياة وتوليد المعاني وإخصابها، في لفظ واحد موح بهذه الدلالات كلها. ويقول: «من تعلق قلبه بحب الدنيا، تعلق من ضرّها بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال». جمع حب الدنيا وأذاها معاً في لفظ واحد كرّره «التعلق» كأنها وجهان لحقيقة واحدة لا تنفصل إحداهما عن الأخرى. ووسع في ألفاظ قليلة مقسّمة، معاني الخيبة كلها. ويقول أيضاً في مثل هذا المعنى: «ما فتح الله على عبد باباً من الدنيا إلا فتح عليه من الحرص مثليه». فكم يحتاج مثل هذا الكلام، في كثافة دلالاته ومعانيه، وما توحى الصورة فيه، وبيان ما طبعت عليه النفس البشرية من حب التملك، من الشرح والتفصيل ويقول: «ما الدنيا؟ وما فيها؟ هل هي إلا سدة فورة (يريد: سكتة الجوع)، وستر عورة؟ فقد لجأ في تشخيص المعنى وتكثيفه إلى صورتين حسيتين، وجمع حياة الإنسان المادية كلها في أربع كلمات!

5. تنتهي أخيراً إن أدب الدعاء، فهو أكثر صفحات تراثه حرارة، وأدّها على سعة الروح وخصوبة النفس وغنى اللغة وطواعيتها. والدعاء يقتضي ما لا تقتضي الحكمة من الإيجاز، إذ